جبرا يتحدث

كلمة جبرا إبراهيم جبرا بمناسبة تكريمه في ٩٤/١٢/١٥

كان من المفترض أن يلقي جبرا الكلمة التالية في «ندوة المتخيّل» التي عُقِدتْ في تونس، إلاّ أن موته قبل أربعة أيام من سفره إلى تونس حال دون ذلك.

سيدي الفاضل مدير المهرجان، الأستاذ عبد العزيز بلعيد، أعزّائي الأساتذة الأفاضل في وزارة الثقافة التونسية، المجتمعين في المهرجان الدولي للزيتونة بالقلعة الكبرى، أيها الأخوة الكرام جميعاً.

إنه لشرفٌ كبير لي، في مهرجانكم الدولي، أن تفكّروا بتكريمي لما سعيتُ فيه طوال عمري من فكرٍ وكتابة.

لا أُنكر أن دعوتكم الجميلة لتكريمي جاءتْ على غير توقّعٍ منّي، ولكنني لم أُفاجأ بمجيئها من تونس، لعلمي بعميق اهتمامكم في هذه الأرض الخضراء بالإبداع العربيّ، أينما تحقق في وطننا الكبير، ولعلمي أيضاً برهافة حسّكم لمسؤولية الكاتب تجاه قومه وتجاه زمانه، ووعيكم وحدةَ مصير هذه الأمّة، ومكانتها في التاريخ عن طريق مثقفيها في المقام الأول؛ فهم المعبّرون عن ثراء شخصيتها، والمؤكدون استمرار مساهمتهم في تنوير الإنسان ـ هذا الإنسان المهدّدِ دوماً بالظلام.

في مثل هذا السياق، على تعدُّد مستوياته، وجدتُني أكتب منذ صباي. وما أقبلتُ عليه في البدء بتلقائية المحبّ، وحماسِ الفتى الذي راحت مشاهدُ الحياة تثيرهُ وتُقلقه وتمتّعُه، جعلتُ فيما بعد أدرسُه، وأتأملُ فيه، وأغذّيه بالمزيد من المعرفة، فيأتيني بالمزيد من الرؤى. وما كان عشقاً في أوله، بقي معي عشقاً سنةً بعد سنة، حتى لأسائلُ نفسي أحياناً، والسبعيناتُ من عمري تسرعُ بي، كما كانت العشرينياتُ والثلاثينات والأربعينات تسرع، أما آن لي أن أَحُطَّ الرحال وأقولَ لنفسي: كفى! ولاسْتَرِحْ!

ولكن كيف أستريحُ مما هو النبضُ الحقيقيُّ في شرايينِي؟ كيف أستريح مما هو الصوت الهاتفُ أبداً في أعماقي طرباً، هَوَساً، عشقاً، وفجيعة؟ بالكلمة عشتُ منذ أن أوصاني أبي ـ ذلك الرجلُ الرائعُ الذي لم يكن يملكُ من مالِ الدنيا أكثر من الثياب التي على ظهره، ولكنه غنيٌّ بالكلمات الرائعة ـ أوصاني قائلاً: «اسمع الكلمة، يا بنيّ، وأدرسها، وأنطقها نطقاً جيداً. فالكلمة من عند الله، بل إني سمعت الحكماء يقولون: الله هو الكلمة...»

وما خالفتُ قطُّ وصيّة أبي. فلقد قدّستُ الكلمة! وما كان عشقاً في أوّلِهِ، بقي عشقاً حتى النهاية.

وكلما وجدتُ اليوم شباباً يناقشونني في كتابات لي أنجزتُها قبل عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، وكأنني كتبتُها البارحة، لا أكتمكم أنني أشعرُ بزَهْوٍ أرى أن لي حقًّا فيه. كنت أخشى أن كتاباتي هذه قد لا تحمل إلى القرّاء اليوم، كُلَّ ما شحنتهُ فيها ذاتَ يوم من أخيلةٍ وعاطفةٍ ورأي، غير أنني أجدُ أنها تأتيهم اليومَ وهي ما زالت على شَحْنتِها، وعلى قُدرتها على تحريك النفس والعقل، ربّما في اتجاهٍ لم يكن ببالي فيما مضى ـ وما الضير في ذلك، ما دامت الكلمة باقيةً على طاقتها، بل لعلّها ازدادت قوةً على قوة في تحريك النفس والعقل من أجل المزيد من الحياة، من أجل المزيد من الخير والمزيد من الجمال، في عالمٍ مابَرِحَ الشرُّ فيه في طُغيانٍ وعتو.

ومن هنا إيماني بالإنسان وقدرتِهِ ـ المستَمدَّة من أروعِ ما نكتب ـ على التشبثِ بحريته وقُدسيّته، ورفضِ كلِّ ما يناقضُ هذه الحرية وهذه القدسيّة. وما بحوثُ ندوتِكم اليوم، حول المتخيَّل العربي في الأدب والفن، إلا استقصاءٌ لهذه الطاقة على الإبقاء، بواسطة الكلمة، على جَذْوة الروح لدى الإنسان في اتّقادٍ مستمّر، ما دام صدرُ الإنسان حزيناً تتراكمُ فيه أحلامُه وخيالاتُه، وتتحرك، وهي تغتني اندفاعاً مع كل كلمةٍ إبداعيّةٍ جديدة، من أجل غَلَبَةِ الإنسان على الموت.

فاسمحوا لي، أيها الإخوة الكرام، وأنتم في صدد تأكيدكم المعرفيّ والنقديّ على بعض ما ذهبتُ إليه في كلمتي القصيدةِ هذه، أن أشكرَ لكم من أعماق القلب ما قلّدتموني به اليومَ من شرف، بتكريمكم إياي. وإنه لفخر عظيمٌ لي أن أرى أن تكريماً لي كهذا إن هو إلاّ تكريمٌ للكلمة العربيّةِ نفسِها، التي بها نزدهي نَفْساً، ونتعشُ روحاً، جميعُنا.

وفّقكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله.